هي أوهى من بيت العنكبوت فماذا عن بيتنا؟

أحمد عمر

كان معلّم الثقافة الاشتراكية في السنة الجامعية الأولى يبيّن لنا وهن بيت إسرائيل، التي وصفها حسن نصر الله في خطاب شهير عرف باسم «خطاب بيت العنكبوت»، بأنّها أوهى من بيت العنكبوت، فهم اختلاطٌ من أشكناز وسفارديم وحريديم، وأمشاجٌ من فلاشا و«ناتاشا»، و«عمل» و«ليكود»، و«ناطوري كارتا»، وسواها من تشكيلات خريطتها الحزبية، وإنّ الصراع الخفي بينهم مُحتدم، فماذا عنّا نحن؟

ثمّ إنّه رأى طالباً يتثاءب، والتثاؤب جنّسٌ من الضحك الساخر والحكم بالملل، وهو، في الأثر، ضحكة الشيطان، فأمره بالوقوف وشهّر به، ثمّ طرده على أعين الطلبة، وكان من أعزّ أصدقائي وألطفهم، فخرج مكسوراً أمام الطالبات الجميلات، ثمّ إنّي سألت نفسي الخاطئة، والسؤال نصف الجواب: ماذا عن بيتنا؟

نحن أيضاً كذلك، وشعبنا جاء من أشتات الأرض، من القفقاس وآسيا الوسطى والأناضول واليمن، وتُظهر فحوصات الحمض النووي (إن صحّت) أجناسنا العجيبة. فنحن أيضاً سفارديم وأشكناز، و«عمل» و«منكوه»، بل قلّ أن تجد بلديةً منتخبةً، ولحظتُ مُبكراً أنّ أعزّ مدّنيّ في السوق السوري بعد الخبز الإسمنت والحديد، وهما مدّنان شبه خام، مثل الماء والكلأ والنار، هما مادّتا بناء البيت، لولا بعض الصناعة فيهما، وكانت رخصة البناء أغلى من عتق رقبة، وكان الناس يهدمون الأبنية القديمة ويستخرجون أضلاعها وعظامها، ويصلّحونها ويقوّمونها، ليبنوا بها من جديد، وقد خسرتُ متانتُها وعلاها الصدأ، غير الجهد المبذول في استخراجها وتقويمها.

قال معلّم الثقافة إنّ إسرائيل الحوالي، وهي خنجر في خاصرة العرب، وتفتح على أهل غزّة المجاري، وتسرق المياه من باطن الأرض، لكن أليست أنظمتنا خناجر مزروعة في خاصرة الشعب (يحبّون الخاصرة لأنّها مدار الرقص)، ومن المعلوم أنّ حكومتنا السورية البعثية الراشدة، فتحت المجاري على بحر حاضنتها في طرطوس. يشرح العلماء «واهنية» إسرائيل بأنّها «واهنية» مزدوجة، في العائلة وفي العمران، مع أنّ خيط بيت العنكبوت من أقوى الخيوط المعروفة، فهو أقوى من الفولاذ بآلاف المرات. وإنّ الأنثى في بعض أجناسه تأكل الذكر بعد أن تقضي وطرها منه، لأنّها أكبر حجماً وأكثر شراسة منه، وفي بعض الحالات تلتهم الأنثى صغارها من دون أدنى رحمة، وعندما يقفس البيض تخرج العناكب فتجد نفسها في بيت شديد الازدحام بالإخوة الأعداء، فتبدأ حربٌ أهلية في العش.

لكن مهلاً أيها السادة! فـ«سبايدر مان» حلّ محل «سوبر مان» في أفلام الخيال العلمي والفنتازيا، وله ستّ عيون يتجسّس بها على خصومه من العرب والديلم، وبعض أجناس العنكبوت له سمّ قاتل، وهو أشدّ أنواع العنكبيات شرّاً، وسيّدها في أفلام الرعب، فاستأنسَتْ به هوليود، وجعلته بطلها مثل إسرائيل في «الشرق الأوسط». تقول مجلّات علمية متخصّصة إنّ العنكبوت تغزل خيوطاً وتبثّها مسافة فرسخ، ولا مشاحة في أنّ الإنسان تعلّم صناعة المظلّات الجوّية من هذه الدويبة العجيبة، وأنّ إسرائيل الأوهى من بيت العنكبوت بارعةٌ في فنّ الجاسوسية وأصطناع العملاء والغزل، واستخدام الذكاء الصناعي، وهو أهمّ سلاح عسكري وعلمي معاصر، وإنّ العنكبوت تصطاد ضحاياها من الحشرات الكبيرة، بل تصطاد الفئران وترفعها من غير «كرين»، وهي تزيد عن وزنها مئات المرّات.

ويذهب السوريون الذين ذاقوا الأمرّين من كتائب حزب الله، التي أنجدت أشقى حاكم عرفه السوريون في تاريخهم، إلى أنّ سبب وهن الحزب وانكشاف قادته الذين قتلوا صرعى، هو غزوه سورية، ونجدته أطغى الحكّام العرب، وإنّ ردّ الحزب واهن ومتأخّر (وقد يكون معذوراً لكنّه مخالف لشعاراته). وقد أشار إلى ذلك غير قليل من فقهاء التحليل السياسي، وإنّ الحزب لم يعدّ العدّة اللازمة أيضاً، و«يلعب دفاع» ويريد الفوز بالنقاط في وجه عدوٍّ يضرب الضربات القاضية، وإنّه شاخ قبل الأوان، فوقع فريسةً في خيوط شبكة العنكبوت، وبيته الواهن «الذي لا يَحْتَمِلُ مَسَّ أدْنى الحَيَواناتِ وأضْعَفِ الرِّياحِ، لا يُكِنُّ مِن حَرٍّ، ولا يَصُونُ مِن بَرْدٍ، ولا يُحَصِّنُ عَنْ طالِبٍ».

عن البيوت حين تحزن

عبد الحكيم حيدر

كان أحمد بن عبد العاطي الأنصاري يمتلك بيتاً مليئاً بالصدافات والصدقات والطير وحلو الكلام، بالقرب من النهر في بغداد، علاوة على قطعة أرض من طرح النهر تحوم النوارس فوق أعالي أشجارها المثمرة بالمانجو أو البرتقال، وكانت له تجارة رابحة في الحرير وقافلة تذهب بالحاصيل والتمور، وتعود محملةً بالحرير والبهارات، إلّا أنّه في سنة هناك، كانت مليئة بالحروب والطواعين والسرقات ناحية الشرق، لم تعد قافلته لا بالحرير ولا حتّى بالبغال، التي كانت لا تقدّر بثمن، وتعرف مسالك الجبال والدروب وكأنّها حفظتها، والمحزن أيضاً أنّ أحمد بن عبد العاطي الأنصاري لم يعد أيضاً، فقد اختفى تماماً بكل دنانيره التي كانت تملأ الدنيا بالحكايات والأسرار، حتّى قيل إنّه كان يدارى عملاته الذهبية في جوافر البغال.

جاريتان أرمينيتان فقط، في بيته العامر بعد غياب أحمد بن عبد العاطي الأنصاري، كانتا في حزن وصمت، الأولى كانت صغيرةً في السنّ جدّاً، وكان أحمد الأنصاري قد وعدها قبل شهور من اختفائه بأن يأخذها في الصيف إلى أرمينيا كي ترى أهلها وأمّها المريضة، والثانية كانت كبيرةً في السنّ ولم تعد تتذكّر الأهل، إلّا شكل أشجار قريتها في أعالي الجبال، وكانت أثيرةً لدى زوجة الأنصاري، وتعرف أسرارها ودموعها. ظلّ البيت كما هو، وتعارك الورثة على أرض طرح النهر، وكلّ واحد من الورثة كانت له حُجّته ووصيته المحفوظة عن ظهر قلب، خاصّة حينما تأكّد للورثة أنّ أحمد الأنصاري لن يعود أبداً، بعدما تفشّى الطاعون من أثر الجثث الكثيرة التي غطّت الجبال بعد انتهاء الحرب.

ظلّ بيت الأنصاري على ترحابه ببعض الضيوف الخلصاء، وخفتت أضواء البيت شيئاً فشيئاً، ظلّت مكتبة البيت بمخطوطاته وعبادة تلاوة القرآن في رمضان، وضيوف يأتون بعيراتهم من بعيد وتستظلّ بالأشجار الماثلة، ونساء فقيرات يدخلن ويخرجن في صمت، وشبان يخرج بعضهم للحروب أو للتجارة، حتّى جاء اليوم الذي أعادت فيه زوجة الأنصاري الجارية صغيرة السنّ إلى بلادها على ظهر قافلة لأنّ أحمد الأنصاري قد وعدها بذلك، ووعد الحرّ دين عليه وعلى أهل بيته، وقد خيّرته أيضاً ما بين أن تبقى هناك حرّةً، لو أرادت، أو تعود مع الرجال لو أحبّت ذلك، ولكنّ الجارية فضّلت ألّا تعود لمرض أمّها، التي كانت تدلّلها بجوار أشجار القرية، فملأت لها زوجة الأنصاري قِربتين من الزبدة والتمور ومنحتها بعض الدنانير، وظلّت الجارية كبيرة السن بجوار زوجة الأنصاري، حتّى ابتنت لها من حُرّ مالها بيتاً صغيراً في مساحة من طرح النهر كانت من نصيبها، وظلّت بها حتّى ماتت ترسل الشموع للكنيسة وتبكي على فراق سيّدتها وسيّدها.

اشترى البيت في ما بعد تاجر بنادق ومُصنّع بارود له علاقة برجالة بريطاني، كانت له علاقة بشراء مزارع الشاي في سيلان والهند، وأبقى البيت على حاله، إلّا بعض الأشجار التي أضافها من الهند أو سيلان، وصارت للبيت مهابةٌ ما، خاصّة لدى السكّان الفقراء من أهل المكان؛ هل لأنّ صاحب البيت كانت له علاقة بالسلطان، أم لشراسة شخصية به أصبحت من صفاته بعد طول أسفاره في البلاد المجاورة، وحمله للبنادق الأشكال والألوان، التي كان أحياناً يطلق من فوّهاتها بعض طلقاته على الطيور، أم لظل الفيل الذي كبر وتطاول في حديقته، أم لذلك الأسد الذي كان يحوم حول مدخل الباب، رغم الأسيجة من الحديد التي كانت تفصل خطواته وعيونه عمّن يدخل أو يخرج من البيت ليلاً أو نهاراً؟ ... حتّى جاء اليوم الذي انتدرت فيه حكايات وصداقاتٌ وصداقاتٌ أحمد بن عبد العاطي الأنصاري تماماً، إلّا بافطة صغيرة على رأس مشتل من أرض طرح النهر مكتوب عليها: «مشتل المهندس عايد بن مظفر بن أحمد بن عبد العاطي الأنصاري، حاصل على المؤهّلات الزراعية للبستنة وهندسة الحدائق من مدارس الزراعة بإسطنبول».

حكيم زياش حين يهزم خيار التطبيع

أحمد المرزوقي

هناك في هذا الزمان من أصبح يصطلح عليهم النجوم، نجوم في الفنّ، نجوم في السينما، نجوم في المسرح، نجوم في مختلف ألوان الرياضات، يعرفهم الناس كما يعرفون أبناءهم، ويتخذهم الشباب قدوة ومثالاً يُحتذى، حتّى أنّهم يقلدونهم في تصفيفات شعورهم المدهشة، وفي لباسهم المهلهل الغريب، وحتّى في مشيهم وحركاتهم وسكناتهم. والناس في المجتمعات كلّها ألفوا أن يروا أطفالاً يتراكضون في الشوارع وهم يلبسون قمصاناً مرقّمةً باسماء لاعبين دوليين مهرة في كرة القدم خصوصاً.

اندهشت وأنا في مكّة المكرمة حين رأيت اسم اللاعب الأرجنتيني ميسّي مكتوباً بالصباغة الحمراء على الجدران. ومن الطبيعي في هذا الزمان أنك لو سألت عن عالم عظيم ساهم في تقدّم البشرية بعلمه الغزير، أو عن آخر من فاز بجائزة نوبل في الآداب أو في أيّ من العلوم، أو حتّى عن عالم عربي ساهم بإبداعاته في تقدّم العلوم الحقّة ماضياً أو حاضراً، لما وجدت بالكاد اثنين أو أربعة من بين مائة ممن يعرفونه أو سمعوا بإنجازاته، وذلك رغم سهولة البحث عنهم بواسطة محرّكات البحث، التي تكفي نقرة واحدة عليها لتعرض لك الألاف من الوثائق والمعلومات.

وبالرجوع إلى هؤلاء النجوم أنفسهم، لو بحثت عن مواقفهم أو التزامهم بقضايا عربية أو إنسانية، أو لو بحثت في رصيدهم المعرفي، لوجدت أنّه قد يكون بالكاد سطحياً لدى معظمهم أو دون ذلك بكثير، فقد أثر عن فنّانة كبيرة أن قدّم عندها شاعر زجّال يكتب كلمات أغانيها، فنادت على بعض ضيوفها قائلة بافتخار واعتزاز: « تعالوا يا سادة أقدّم لكم الأستاذ فلان الذي يكتب لي الدجل. والله إنّه لدجّال كبير»، ولم تكن طبعاً تمزح بشهادة شاعرنا، الذي احرجه مرّات عديدة أن يُصحّح خطأها، ويبين لها البون الشاسع بين الزجل والدجل.

أمّا فنان آخر عندنا، فقد كان موقفه أدهى وأمرّ، حين سئل عن رأيه في التطبيع مع العدو الإسرائيلي، فأجاب بأنّه فنّان محايد من واجبه أن ينأى عن الخوض في السياسة، وألّا يكون له بالتالي أيّ رأيٍ ما دامت الحكومة هي من تتكفّل بالتفكير مكانه، إذ حسب رأيه، وحدها من تعرف أين توجد المصالح العُليا للوطن.

وقد حدث لي شخصياً أن سألت سيّدةً من غير النجوم عن أحوال مدينة الحسيمة في قلب الريف المغربي، وقد كانت قد غادرت الدراسة في مرحلة الثانوية العامّة بعدما تزوّجت موظّفاً وعاشت معه هناك خمس سنوات فقالت: «الريفيون أناس فيهم كثير من الجدّية والاستقامة، فإمّا أن يحبّوك إن كنت على شاكلتهم، أو أن ينبذوك إن كنت غير ذلك، ولكنّي أعتب عليهم أنّهم يبالغون في امتداح شخص بدعى عبد الكريم». فقلت لها مندهشاً: «أتقصدين بطل الريف، المجاهد محمد بن عبد الكريم الخطابي؟»، فقالت متسائلةً ببلادة: «ومن يكون ابن عبد الكريم الخطابي هذا؟»!.

فأوشكت من شدّة استنكاري، وأستحالة نطحي السيّدة، أن انطح الحائط. فإذا كان هذا هو واقع الحال عند بعض النجوم عموماً، فإنّ هناك استثناءات تنقذ ماء وجهنا وتُشفي صدور الغيورين على مستقبل هذه الأمّة العربية الجريحة.

كي لا نذهب بعيداً، كلّنا يتذكّر ماذا حدث في كأس العالم في قطر (2022)، بعد الانتصار التاريخي للمغرب على نظيره الإسباني، فاجاب بأنّه لاعبٌ مغاربي محايد من واجبه أن ينأى عن الخوض في السياسة، وألّا يكون له بالتالي أيّ رأيٍ ما دامت الحكومة هي من تتكفّل بالتفكير مكانه، إذ حسب رأيه، وحدها من تعرف أين توجد المصالح العُليا للوطن.

وقد حدث لي شخصياً أن سألت سيّدةً من غير النجوم عن أحوال مدينة الحسيمة في قلب الريف المغربي، وقد كانت قد غادرت الدراسة في مرحلة الثانوية العامّة بعدما تزوّجت موظّفاً وعاشت معه هناك خمس سنوات فقالت: «الريفيون أناس فيهم كثير من الجدّية والاستقامة، فإمّا أن يحبّوك

> حكيم زياش هو من يسمّى «النجم» حقّاً الذي يعطي المثل الأعلى لمشجعيه في نصرة مجاهدي غزّة العزّة

وحرمهم من التعبير عن تضامنهم المطلق مع القضية الفلسطينية. وهذا ما يبدو واضحاً في مجال آخر حين يتغاضى خطباء الجمعة في المغرب اليوم عن ذكر اسم كيان الاحتلال الإسرائيلي، واسم فلسطين، كما كانت تجري العادة، فكانوا يدابون على الدعاء على الأولين والدعاء للآخرين، وأصبحوا يكتفون بدعاء غامض «لإخواننا المجاهدين في بيت المقدس وفي مشارق الأرض ومغاربها»، ويلتمسون من الله عزّ وجلّ أن يتكفّل بتشتيت شمل «أعداء الملّة والدين» وكأنّ هؤلاء الأعداء أشباح لا اسم لهم، لأنّهم لربّما مخلوقات لامرئية تعيش في كوكب غير هذا الكوكب.

وقد برز من نجوم كرة القدم المغربية، الذين أزروا القضية الفلسطينية من دون تحفّظ ولا تهيّب، اللاعبون أنور الغازي، الذي فسخ ناديه الألماني عقده معه لهذا السبب، ونصير مزراوي وجواد الياميق وبلال الخنوس وحكيم زياش. هذا الأخير بالذات، صنع الحدث أخيراً، وأحدث رجّة لدى الشباب خصوصاً، والمواطنين المغاربة والعرب وأحرار العالم جميعاً، إذ أصبح اسمه عذب المنطق على لسان المنافحين عن الحقّ كلّهم، وذلك حينما حمل الراية الفلسطينية في حفل تتويج ناديه غلطة سراي، في بطولة الدوري التركي في ملعب غصّ بعشرات الآف المشجّعين، الذين تفاعلوا معه بشكل حماسي منقطع النظير. كما كتب في الأونة الأخيرة تدوينة رائعة رفعته إلى مصاف المجاهدين بالكلمة الملتزمة العادلة، فكتب بالحرف: «ما حدث في فلسطين من إبادة جماعية غار على حكومة بلدي وعلى الدول التي تشجّع ذلك. كفى، كفى، ثمّ كفى.. ورسالتي لإخوتي وأخواتي في المغرب وفي كلّ العالم، ارفعوا أصواتكم عالياً: الحرّية لفلسطين». هذا هو من بسمّى «النجم» حقّاً، الذي يعطي المثل الأعلى لمشجعيه في نصرة مجاهدي غزّة العزّة، وأبناء الشعب الفلسطيني كلّهم، الذين ما رأت البشرية لا في أوّلها ولا في آخرها ظلماً وعدواناً مورس على شعب كما مورس عليهم.

لقد كنت رائعاً يا زياش، وهل يمكن إلا يكون رائعاً من وقف في نصرة فلسطين وقفةً شامخةً. لقد شرّفت نفسك وأسرتك ووطنك وأمتك. ولأنّك أبقوتنا في الرياضة، فقد أصبحت اليوم أبقوتنا قبلنا ورددوها بلا ملل. كأن إعطاء الأولوية لهذا الاستنكار هو للتغطية على تقاعس إيران عن حماية حزب الله في هذه الحرب، وقبله غزّة. ولكن، هل حاول بعضهم المقارنة بين الحلف الإمبريكي الإسرائيلي، والذي لا يُسمى حلفاً، بل تبعية معلنة، بين إيران وحزب الله» ... من زمن يبدو الآن بعيداً، كانت إيران تطلق التصريح تلو الآخر، منتشية بنفسها من سيطرتها على شعوب العراق وسورية واليمن ولبنان، وفي المديح هذا، يحظى حزب الله بالموقع الأول بصفته الأنجح من المليشيات الأخرى التي أسّستها إيران في تلك الدول. علاقة ليست تحالفية ولا ائتلافية ولا جبهوية. إنّها علاقة تبعية مُعلنة، يعتزّ بها حزب الله ويزيد على «عمرها» وأقدميتها. أربعون عاماً من التبعية المطلقة، لم يهزّها انشقاق ولا خروج وجوه وازنة.

ليست العلاقة بين إسرائيل والولايات المتّحدة كذلك. هي مبنية على يهود أميركا، قديمة، تعود إلى أكثر من قرن وربع قرن، منسوجة بمساواة يهود أوروبا الشرقية «بوغروماتها» (مذابحها) قبل النازية. تغذّيها المنظّمات والمدارس والكنس اليهودية، وتدخل في أعماق الدولة الأميركية العميقة. وبعد نشأة إسرائيل، صارت أميركا حامية حماها، هزّتها قليلاً الإبادة في غزّة، وطرحت عليها تساؤلات تاريخية، ولكنّها بدت وكأنّها تشجّع بنيامين نتنياهو على المضيّ في حربه مع إيران، وخائفة في الآن عينه أن يتجاوز نتنياهو خطوطاً ما، فيعرّض مصالحها للخطر. وإسرائيل حليفة أميركا لا تطيعها تماماً، ولا ترضى بأقلّ من تغذية تكناتها بالذخائر والأسلحة، ومن دعمها الاستخباراتي والعسكري. ثمّة هامش تلعب به، مثل أيّ حليف قوي، تخرق هنا، تعبث هناك، تتجاوز المحاذير الأميركية، خلافاً لحزب الله الذي يحتاج إلى قرارات إيرانية لكي يطلق صواريخه البالستية على إسرائيل دفاعاً عن أرض لبنان. ولا قرار بشأنه، إنّ صدّقنا التفسير، وإلا فسيكون حزب الله قد أغرقنا بمزيد من الأوهام، بتصويره اختباء هذه الصواريخ في أنفاقه. لاحظ كثيرون أنّ تضامن الرأي العام الغربي مع لبنان في محنته هذه كان شبه غائب مقارنةً بما أندلع من حركات طلابية وشعبية تضامنية مع غزّة وفلسطين. لماذا هذا الغياب مقارنة بذاك الحضور؟ ... أحالت كاتبة هذه السطور السؤال على أصدقاء غربيين كانوا يشاركون في تظاهرات تأييد غزّة، ويتابعون أوضاعنا إلى هذا الحدّ أو ذاك؛ لماذا لا تتضامنون مع لبنان كما فعلتم مع غزّة؟ ... والجواب الإجابات بلغة تلغرافية: «عذاب الفلسطينيين قديم ومثبّت وحقوقهم واضحة. فيما اللبنانيون عن ماذا يدافعون؟ عن النظام الإيراني الاستبدادي، المعادي لمواطنيه من رجال ونساء؟ وما فعله منذ عامين بعد انتفاضة «المرأة، الحرية، الحياة»، ليس فيه حقوق إنسان أو عيش كريم؟»... «نظام بشع يرسل مليشياته إلى سورية دفاعاً عن نظام أبشع منه. وذراعه حزب الله الذي يقول إنّه يخوض الآن حرب الدفاع عن جنوب لبنان، كأن في طليعة هذه المليشيات، فكيف ندافع عنه؟»... و«إيران هذه لم تنتفض إلا عندما خُرقت سيادتها الوطنية بصراحة. اغتيال إسماعيل هنيّة، ومن بعده رجلها الأول حسن نصر الله، وقبلهما القنصلية الإيرانية في دمشق. قبل ذلك، ما حلّ بغزّة، بلبنان... ماذا فعلت؟». تفسير آخر، ينطوي على قدر عال من البراءة، براءة المغالين في عقلانيتهم.

(كاتبة لبنانية)

فلسطينيّتنا خيار واختيار

صلاح حمودي

اعتقلتني قوات الاحتلال الإسرائيلي في مارس/ آذار 2022، وكان الرابع من ديسمبر/ كانون الأول من العام نفسه يوافق نهاية فترة اعتقالي الإداري. في ذلك اليوم، اتصل ضابط المخابرات الإسرائيلي بوالدي ليوقّعا أوراق الإفراج عنّي، خاصة التي تمنع إقامة احتفال بمناسبة خروجي للحرّية، كما جرت العادة عند إطلاق سراح أسير فلسطيني مقدسي، هل سأعود إلى بيتي في القدس أم سيجري ترحيلي إلى فرنسا؟

وقبل منتصف ليلة 17 ديسمبر، أخبرني مسؤول السجن أنّهم سوف ينفّذون قرار ترحيلي في الليلة نفسها. جرى كل شيء بسرعة كبيرة وأنا ما أزال في حالة من الصدمة. جهّزت نفسي وودّعت رفيق الزنزانة، وأصررتُ على وداع بقية رفاق السجن، فسمح لي الحرّاس بذلك لكن من وراء الأبواب. وصل بعد ذلك أربعة أشخاص من المخابرات وشرطة الحدود الإسرائيلية بملابس مدنيّة، قيّدوا يديّ وقدميّ ووضعوني في سيارة عسكريّة وغادرنا السجن. رفضت الاستسلام للياس رغم مشاعري المشوّشة، وأصابتني الحيرة خلال الطريق من السجن إلى المطار، هل أنظر إلى المشهد من النافذة؟ .. ولم أستسغ فكرة أن تكون آخر صورة أحتفظ بها لوطني هي تلك التي أراها من سيارة عسكريّة. فأتّخذتُ القرار وأغمضت عينيّ.

رفضت أن أغادر بصمت، ولكي يكون موقفي واضحاً، قمت قبل ترحيلي بيوم بتهريب رسالة صوتيّة من السجن قلت فيها: «هذه رسالتي الأخيرة قبل مغادرة وطني، أبناء شعبي الفلسطيني الصامد... تحية الوطن الفلسطينيّ، وتحية الابتداء بأول شعب... اتوجّه بهذه الرسالة وأنا أتعرّض لتهجير قسري واقتلاع من وطني، معتقداً هذا العدو العراقي بنتصر علينا. إنّ فلسطينيّتنا خيار واختيار، وفاء وانتماء، أرض وذاكرة، مكان وزمان، فلا قرار تهجير قسري، ولا تطهير عرقي يرهبانني، ولا يردعانا ولا يردّانا عن خيارنا بالمقاومة، ولا قوة فوق الأرض تستطيع أن تقتلع فلسطين، وشعب فلسطين، من عقولنا ووجداننا. أنا أغادرك اليوم يا وطني مجبراً ومُرغماً، أنا أغادرك اليوم من السّجن إلى المنفى، لكن تأكد جيّداً أنّني سابقى كما عهدتني وفياً لك، وحريصاً على حرّيتك، سأحملك معي أينما كنت، سنبقى أنت بوصلتي الوحيدة، وإلى أن نلتقي مجدّداً، واعانقك في القدس والجليل وحيفا، لك أن تطلب منّي ما تشاء، واعاهدك أن أبقى جنديّك الوفي أبداً أبداً أبداً».

مضى على إبعادي نحو عام وعشرة أشهر، أعود بالنظر إلى الخلف، إلى 23 عاماً مضت، إنّ موضوع اعتقال الفلسطينيين (جزءاً من منظومة التحكّم والسيطرة الإسرائيلية)، يمثّل أحد أشدّ أدوات القمع، وتعدّ السجون اليوم، كما في السابق، أحد أدوات العدوّ الفاعلة رسم سياق حياة الفلسطينيين. ولا يخلو بيت فلسطينيّ من تأثير هذه المحاولات، فترى فلسطينيّ في كلّ حديث له يتحدّث عن فترة له في الاعتقال أو عن والد أو والدة أو أخ أو قريب له في الاعتقال. إنّ غاية العدوّ من تشييد السجون على امتداد محاولة منع الفعل المقاوم مهما كان شكله، لكنّه بالضرورة يضمر أيضاً نيّة لترك أثر سلبيّ قوي في الهُويّة الوطنية الفلسطينية. غير أنّ السجون ومن فيها لم ينفصلوا يوماً عن الواقع الفلسطينيّ، وتحوّل السجن حالة تأثير وتأثّر مع القوّة والحالة الفلسطينية العامّة.

> أفشل الأسير الفلسطينيّ خطط العدو لخلق «الإنسان الفلسطيني الجديد»

استطاع الأسير الفلسطينيّ منع عملية صهر الوعي التي حاول العدوّ الإسرائيليّ تمريرها داخل السجون وعلى كلّ الأسرى، أي أنّه كسر إرادة العدوّ وأفشل خططه لخلق «الإنسان الفلسطيني الجديد»، الذي ينعكس فكره الجديد وممارساته الاجتماعية بالضرورة، على عائلته ومحيطه الوفي أبداً أبداً أبداً».

مضى على إبعادي نحو عام وعشرة أشهر، أعود بالنظر إلى الخلف، إلى 23 عاماً مضت، إنّ موضوع اعتقال الفلسطينيين (جزءاً من منظومة التحكّم والسيطرة الإسرائيلية)، يمثّل أحد أشدّ أدوات القمع، وتعدّ السجون اليوم، كما في السابق، أحد أدوات العدوّ الفاعلة رسم سياق حياة الفلسطينيين. ولا يخلو بيت فلسطينيّ من تأثير هذه المحاولات، فترى فلسطينيّ في كلّ حديث له يتحدّث عن فترة له في الاعتقال أو عن والد أو والدة أو أخ أو قريب له في الاعتقال. إنّ غاية العدوّ من تشييد السجون على امتداد محاولة منع الفعل المقاوم مهما كان شكله، لكنّه بالضرورة يضمر أيضاً نيّة لترك أثر سلبيّ قوي في الهُويّة الوطنية الفلسطينية. غير أنّ السجون ومن فيها لم ينفصلوا يوماً عن الواقع الفلسطينيّ، وتحوّل السجن حالة تأثير وتأثّر مع القوّة والحالة الفلسطينية العامّة.

(محام فلسطيني . فرنسي
مبعد من فلسطين)

كاريكاتير

عماد حجاج

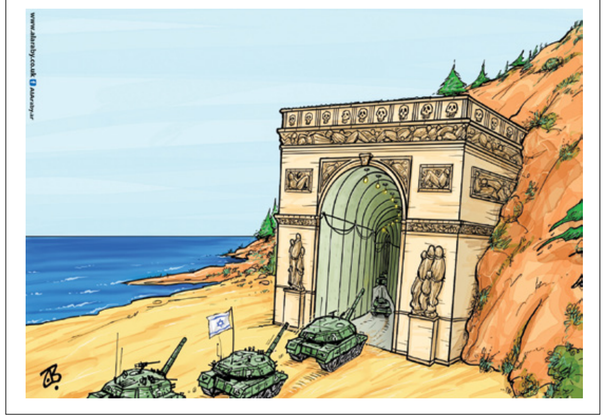

ذراع إيران تدافع عنها وإيران تدافع عن نفسها

دلال البزري

نحن الآن في عام 1979. مضى أسبوعان على انتصار الثورة الإسلامية، وياسر عرفات أوّل زوارها. يستقبله الخميني لحظة وصوله بما يشبه الاحتفال، وعرفات يُعلن أنّ «الثورة الإيرانية تسجّل عصراً جديداً وفجراً جديداً». خلال هذه الزيارة، تقطع إيران علاقاتها الدبلوماسية بإسرائيل، تحوّل مقرّ سفارتها إلى سفارة فلسطين في إيران، وتقدّم مفاتيحها إلى عرفات. فإيران الآن هي الأمل المُتبقّي، بعدما وقّع الرئيس المصري الراحل أنور السادات اتفاقية السلام مع إسرائيل. طبعاً، سبق ذلك علاقات نسجتها منظّمة التحرير مع المعارضة الإيرانية، دعماً وتدريباً. منها اليسارية، مثل «مجاهدي خلق»، وأخرى دينية خمينية. شاركت حركة أمل في تدريب هذا النوع الأخير من المقاتلين، وكان أحد مؤسّسيها مصطفى شمران، المقرّب من الإمام الإيراني - اللبناني موسى الصدر.

لا تعيش العلاقة بين منظمة التحرير وإيران طويلاً. تدور حولها نقطتا خلاف، أولاهما أنّ عرفات يريد أن تبقى القضية الفلسطينية وطنيةً على ما كانت عليه منذ تأسيسها. ومع أنّه لم ينجح طوال مسيرته في تجنيب نفسه كأس الإصغاء الى «حلفائه»، غير أنّ عرفات يتمسّك بدرجة عالية من استقلالية قراره، بصفته رئيس منظّمة التحرير الفلسطينية، الممثّل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني. يريد إذاً أن تكون قضيته فلسطينية، فيما الخميني يطمح إلى امتلاكها عبر إعلانها «قضيةً إسلامية». يقول له: «ليس هناك قضية فلسطينية، بل قضية إسلامية». نقطة خلافية ثانية بين الرجلين: أنّه بعد عام على الثورة الإسلامية، تندلع الحرب بين إيران والعراق. تدوم ثماني سنوات. ومنظّمة التحرير ترفض ما يطلبه منها الخميني، أي تأييدها في القتال. يحاول عرفات، كعادته، أن يوازِن بين رفضه تأييد هذه الحرب وإبقاء صلات حسنةً بإيران.

ولكن إيران تخسر هذه الحرب، وتستخلص الدرس أنّها إذا أرادت الاستمرار بـ«تصدير ثورتها»، وتحت شعارات تحرّك قلوب مناطقتها العليلة بغرائها السياسي، فما عليها إلا مهمّة واحدة: بناء أولى أذرعتها الضاربة في أضعف الكيانات العربية، لبنان، القُطر الذي يحمل وعوداً كبيرةً في باطنه وفي سطحه. لبنان المحازي لإسرائيل، الخارج لتوّه من غزو إسرائيلي دائما وأبدا، فتشكّل إيران ماكينة تصدير ثورتها فيه، أي تصديرها للحرب إلى خارج أراضيها، تعويضاً عن هزيمتها في حربها ضدّ العراق، أو ربّما لحاجة قطرية جينية عند إيران بإدامة ثورتها عبر إدامة الحرب، لكن هذه المرّة، حروب «رابحة» خارج أراضيها، كلفتها بسيطة؛ الوصاية والمال. فكان لبنان الصدفة عام 1982، ورحيل عرفات من لبنان، وبداية تكوين مجموعة حزب الله، والموروث اليساري جاهز: العداء لامبريالية والصهيونية والرجعية، وطبعاً فقدان دول «الصمود والتصدي»، من العراق وسورية وليبيا، مصداقيتها القتالية ضدّ إسرائيل.

هكذا، يبنى حزب الله شرعيته وسلطته ودويلته، ويحطّم الدولة اللبنانية على أساس أنّه «مقاومة»، وأنّه يصبو إلى بلوغ القدس وفلسطين. في البداية، كان إعلان تلك العلاقة الحميمة بين إيران وحزب الله مدعاةً لنوع من التكتّم، وبعدما تمكّن حزب الله من البلاد والعباد، صار يعلن جهاراً علاقة التبعية المطلقة القائمة بينه وبين السلطة الإيرانية. والعالم غير مصدّق أنّ إيران تختفي بالنصر الذي أحرزه الحزب عام 2000، بطرده الاحتلال الإسرائيلي من لبنان. تريد الاستمرار في الحرب مع إسرائيل، تختار مواعيدها عندما تحتاج تحسين شروطها مع الغرب، فتوزّط لبنان بأكمله في حروب كبيرة وصغيرة، ويدفع ثمنها لبنان من دون كلل. سنوات من الحروب، بمحطّاتها الكُبرى والصغرى، بلغتها وعنفها ومناخها واستنفاراتها الدائمة، حتّى بلغنا اليوم نقطة الحقيقة العارية بالحرب الدائرة في هذه اللحظة بين إيران وإسرائيل، وليس فيها شيء من حقوق فلسطينية، أو أهل غزّة، ولا لبنان، فقط سيادة إيران في أراضيها، بدعم من حزب الله الذي ينزف، ومعه لبنان كلّه.

صور هذه الحرب وكلماتها لا تنبض، معظمها لا يكاد يُرى منها غير الدعم الأميركي لإسرائيل في حربها مع إيران، كأنّه يكشف المستور، فيما الدعم الأميركي لإسرائيل صار أيقونةً، قال بها أباؤنا وأجدادنا قبلنا وردّدوها بلا ملل. كأن إعطاء الأولوية لهذا الاستنكار هو للتغطية على تقاعس إيران عن حماية حزب الله في هذه الحرب، وقبله غزّة. ولكن، هل حاول بعضهم المقارنة بين الحلف الإمبريكي الإسرائيلي، والذي لا يُسمى حلفاً، بل تبعية معلنة، بين إيران وحزب الله» ... من زمن يبدو الآن بعيداً، كانت إيران تطلق التصريح تلو الآخر، منتشية بنفسها من سيطرتها على شعوب العراق وسورية واليمن ولبنان، وفي المديح هذا، يحظى حزب الله بالموقع الأول بصفته الأنجح من المليشيات الأخرى التي أسّستها إيران في تلك الدول. علاقة ليست تحالفية ولا ائتلافية ولا جبهوية. إنّها علاقة تبعية مُعلنة، يعتزّ بها حزب الله ويزيد على «عمرها» وأقدميتها. أربعون عاماً من التبعية المطلقة، لم يهزّها انشقاق ولا خروج وجوه وازنة.

ليست العلاقة بين إسرائيل والولايات المتّحدة كذلك. هي مبنية على يهود أميركا، قديمة، تعود إلى أكثر من قرن وربع قرن، منسوجة بمساواة يهود أوروبا الشرقية «بوغروماتها» (مذابحها) قبل النازية. تغذّيها المنظّمات والمدارس والكنس اليهودية، وتدخل في أعماق الدولة الأميركية العميقة. وبعد نشأة إسرائيل، صارت أميركا حامية حماها، هزّتها قليلاً الإبادة في غزّة، وطرحت عليها تساؤلات تاريخية، ولكنّها بدت وكأنّها تشجّع بنيامين نتنياهو على المضيّ في حربه مع إيران، وخائفة في الآن عينه أن يتجاوز نتنياهو خطوطاً ما، فيعرّض مصالحها للخطر. وإسرائيل حليفة أميركا لا تطيعها تماماً، ولا ترضى بأقلّ من تغذية تكناتها بالذخائر والأسلحة، ومن دعمها الاستخباراتي والعسكري. ثمّة هامش تلعب به، مثل أيّ حليف قوي، تخرق هنا، تعبث هناك، تتجاوز المحاذير الأميركية، خلافاً لحزب الله الذي يحتاج إلى قرارات إيرانية لكي يطلق صواريخه البالستية على إسرائيل دفاعاً عن أرض لبنان. ولا قرار بشأنه، إنْ صدّقنا التفسير، وإلا فسيكون حزب الله قد أغرقنا بمزيد من الأوهام، بتصويره اختباء هذه الصواريخ في أنفاقه. لاحظ كثيرون أنّ تضامن الرأي العام الغربي مع لبنان في محنته هذه كان شبه غائب مقارنةً بما أندلع من حركات طلابية وشعبية تضامنية مع غزّة وفلسطين. لماذا هذا الغياب مقارنة بذاك الحضور؟ ... أحالت كاتبة هذه السطور السؤال على أصدقاء غربيين كانوا يشاركون في تظاهرات تأييد غزّة، ويتابعون أوضاعنا إلى هذا الحدّ أو ذاك؛ لماذا لا تتضامنون مع لبنان كما فعلتم مع غزّة؟ ... والجواب الإجابات بلغة تلغرافية: «عذا

عام على عودة المقاومة

كمال عبد اللطيف

نواجه في هذه الأيّام، بكثير من الأحاسيس المتناقضة والأسئلة الصعبة، مرورَ عام على الحرب العدوانية التي يشنّها الكيان الصهيوني على الشعب الفلسطيني. نواجه صور الموت والهدم والحرق والتجويع والطرد والتهجير، نرى ما ذكرناه كلّه بأعيننا، ويراه العالم أجمع معنا، حتّى عندما يصرّ الإعلام المُغرِض على وصف جرائم الحرب المتواصلة وربطها بجغرافية غزّة وساكنتها، مُغفلاً أنّ فلسطين لا يمكن أن تكون من دون غزّة. ولا يقتصر الأمر على هذا، بل يتخطاه، فحرب الإبادة لم تتوقّف، بل تتّسع اليوم ويصعب إدراك مختلف مراميها. عندما عادت المقاومة الفلسطينية مُفَجِّرةً «طوفان الأقصى» في السابع من أكتوبر/ تشرين الأول (2023)، كنّا نعرف أنّ عودتها تَمَّت في سياق شروط فلسطينية مُعقَّدة، وأنّها عادت في وقت يُواصل فيه الكيان الصهيوني تَجْمِيد آليات وإجراءات إتمام مشروع اتّفاقية إعلان المبادئ (أوسلو 1993)، إضافة إلى أنّه لم يتوقّف عن استيطان ما تبقى من التراب الفلسطيني، ويواصل اعتداءاته على فلسطينيّي الضفّة والقطاع. عادت المقاومة لتعلن بجرأة ووضوح أنّ الشعب الفلسطيني قادر على اختراق أسلاك الصهيونية، وإنجاز المهمّات الصعبة، في الوقت الذي كان يتصوّر فيه أنّ بإمكانه أن يستأنف سياساته العدوانية، ويُعِدَّ العُدَّة الحربية لاستكمال خطوات ما يُعْرف بـ«صفقة القرن». حطّمت المقاومة العائدة حلم الصهاينة القادم من مشروع تيودور هرتزل الرامي إلى بناء دولة لليهود في قلب المشرق العربي، وساهمت بتفجيرها «الطوفان» في وَقْفِ ما آلت إليه الأوضاع الفلسطينية والأوضاع العربية، ودفعت الجميع إلى الانتباه إلى الوضع الفلسطيني في تحوّلاته، وفي صور علاقاته بنظام الاحتلال الصهيوني وسياساته العدوانية المتواصلة. ورغم أنّ هذه العودة ارتبطت بالحرب التي شنّتها إسرائيل على الشعب الفلسطيني في غزّة، إلّا أنّ ردَّات فعلها المُدَمِّرة لم تُوقف روح المقاومة التي تستعيد اليوم شعارات التحرير والاستقلال، بعد سيادة قيم التخاذل والتراجع في أغلب الأنظمة السياسية العربية، وقد تحوّلت في السنوات الماضية أنظمةً قادرةً على نسيان مختلف صور احتضانها للمشروع الوطني الفلسطيني، مشروع تحرير ما تبقى من الأرض العربية. نقرأ أفعال المقاومة في سياق المواجهة المطلوبة دائماً بين الفلسطينيين ومن يحتلّ أرضهم وبيوتهم ويستوطنها، نقرأها ردَّة فعل على مآلات المسألة الفلسطينية، وعلى مختلف أشكال التحوُّل التي عرفتها في آخر أربعة عقود. فلا أحد يستطيع إنكار أنّ فعل المقاومة الجارية يُعيد قضية التحرير إلى الواجهة، إنه يذكّرنا بالنكبة المتواصلة منذ أزيد من سبعة عقود، إذ يتواصل الضَّم والهدم والطمس. غمرت مياه الطوفان الجارف أحلام الصهاينة، وحطّمت أساطيرهم بضربة واحدة، استيقظ الغرب الإمبريالي على وضع حادث الطوفان المُدَبَّر بِعِنايَةِ من اغْتُصِبت أراضيهم وهُجِّروا مِن ديارهم، فأُعلِنت حرب إبادة وتهجير، وانطلقت جرائم الحرب الصهيونية بكثير من العنف، وكثير من الحرق والقتل. وقد مرّت الآن سنة كاملة تلقّى فيها الشعب الفلسطيني المقاوم ضربات موجعة، فوجد نفسه منخرطاً في عملية مُقَاوَمَةٍ استعاد فيها صَفاء شعارات التحرّر والاستقلال، رغم كلّ ما لَحِقَهُ من ويلات وخراب.

> تتواصل روح المقاومة الفلسطينية لتؤكّد أنّه لا يمكن إبادة الفلسطينيين ولا تهجيرهم، فهم في فلسطين باقون

يقتضي سياق المقاومة الجارية التذكير بصعوبة المعركة، كما يقتضي التنويه بالانتفاضات والمقاومات التي ساهمت في بناء معارك التحرير الفلسطينية. فقد واجَه الآباء كائناً استعمارياً من طراز خاصّ، منحته أوروبا وهي تغزو العالم وتُركّب خرائطه في نهاية القرن التاسع عشر، معالم مُحَدَّدة. ولم يشكل حدث النكبة سنة 1948، وإعلان دولة إسرائيل، إلّا الوجه المُعْلَن والمكشوف، أمّا تهجير وطرد وتشريد الفلسطينيين، فطُمِس، رغم أنّه استُعمل قاعدةً مُؤَسِّسَةً لدولة مسروقة من أهلها. منذ ذلك الوقت، لم تتوقّف المعارك، ولم تتوقّف الحروب والهزائم والانتصارات، تَمَّ السطو على بعض الأرض بالحديد والنار والمال، والخيانات والمَكْر. استُعمِلت الوسائل كلّها، من التّطهير العِرْقِي إلى إخلاء القرى والمدن، تَمّ تغيير أسماء الأماكن وتزوير التاريخ بالأساطير التوراتية، وتَمّ لاحقاً إعلان يهودية الدولة، فأصبحنا أمام استعمار جديد يختلف عن صور الاستعمار الغربي، كما حصل في نهاية القرن التاسع عشر، إحلال شعب ودولةٍ مكان شعب وثقافة وتاريخ، والمحرقة التي مورست على اليهود من طرف النازية لا علاقة لها بالحرائق وبجرائم الحرب التي يواصلها اليوم الكيان الصهيوني في فلسطين، مُستهدِفاً محو شعب كامل.

تتواصل روح المقاومة الفلسطينية زمن الحرب، لتؤكّد أنّه لا يمكن إبادة الفلسطينيين ولا يمكن تهجيرهم لا من ديارهم ولا من أرضهم، فهم في فلسطين باقون رغم الويلات التي يتعرّضون لها. تطايرت شرارات المقاومة العائدة من قلب ما تبقّى من الرماد، لتعلن للعالم بصوت مرتفع أنّ أساطير الصهاينة المُرَتَّبَة مفرداتها وفصولها من طرف القِوى الغربية في سياق حسابات دولية ذات صلة بأزمنة خلت، لم تعد مجديةً. المقاومة الجديدة اليوم خيار سياسي تؤطّره تحوّلات كبرى يجري تأسيسها، ومُخْطِئٌ من يعتقد أنّ تدمير غزّة وقتل أطفالها، وجرائم الحرب كلّها، التي تمارسها إسرائيل ومن معها بعتادهم الحربي، ستطفئ جذوة شرارات التاريخ الجديد، الذي صنعه طوفان الأقصى.

لسنا هنا بصدد بلورة محصّلة لجرائم الحرب التي يقوم بها الكيان الصهيوني، إن ما يهمّنا في غمرة الحرب المتواصلة تأكيد أنّنا لا نقيم أيَّ تمييز بين ساكنة غزّة وساكنة فلسطين. كما لا نميّز بين ساكنة غزّة وساكنة المدن والقرى الأخرى وأشكال مقاومتها، وقد شملت في العقود السبعة المنصرمة مختلف المدن الفلسطينية. إنّ ما يهمّنا هنا، ونحن نُكْمِل سنةً من المقاومة، هو كيف يواصل الشباب الفلسطيني المقاوم كسر أوهام الصهاينة؟ وإذا كنا نعرف صعوبة الشروط والسياقات السياسية والتاريخية، المؤطِّرة اليوم لحرب التحرير الجارية، فإنّنا نعرف أيضاً أنّ الشباب الرافع اليوم راية المقاومة والصمود، هو وحده القادر على وقف العدوان الصهيوني المتواصل، بفضل وحدة الصَّف المُقْتَرِنَة بوحدة المشروع الوطني الفلسطيني، ووحدة الفصائل المُكوِّنة للجسم الفلسطيني، من أجل صمود أقوى ومقاومة تفتح أعينها مُجدَّداً على سياق تاريخي مختلف عن كثير من التحوّلات التي لحقت بالمشروع الوطني الفلسطيني في آخر ثلاثة عقود.

(أكاديمي مغربي)

عوديد ينون يُبقي الأسد في السرداب

أيمن الشوفي

تجرُّ إسرائيل آلتها العسكرية اللاهثة من غزّة إلى جنوب لبنان، وربّما لاحقاً ستجرُّها إلى سورية، فهذا كيانٌ يصعب تهدئته وهو يجابه منطقةً عربية بأكملها، يريد إعادة صياغتها وهيكلة نفوذه فيها، ويصاحبه في يقينه العسكري والسياسي ذاك تراجعُ قوّة الدولة وعناصر تكوينها في كل من لبنان وسورية إلى الحضيض، ويأسُ شعبي هذين البلدين من استنطاق حياةٍ بخصائص مختلفة تحترم قيمة وجودهم، بسبب أنّهم رهائنُ حالةٍ سياسيةٍ قاتمةٍ فيها استفحال نظام ديكتاتوري مريض كما حالُ سورية، أو فيها ازديادُ عيوب نظام المحاصصة الطائفية كما هو حالُ لبنان، والتي تعاظم فيها دور حزب الله، ليصير مُعطِّلاً للحياة السياسية في ذاك البلد الصغير، وذراعاً في الخارج تضرب السوريين، لتُعينَ بشّار الأسد على البقاء، وفي هذا كلّه تستثمر إسرائيل بطشها العسكري، لتجعله مقبولاً أكثر في الفضاء الاجتماعي العام، فبات كثيرون يتغاضون عن فكرة العدوان الإسرائيلي في مقابل ارتفاع أسهم فكرة الخلاص من تبعات تلك الحالة السياسية المُتردِّية حقّاً، وهذا ما يُتداول فعلياً، وعلى نحوٍ واسعٍ، داخل أروقة بورصة العطالة والعجز العربيين. ومنذ السابع من أكتوبر/ تشرين الأول 2023، حين بدأ «طوفان الأقصى»، وبشّار الأسد قرّر أن يدخل السرداب، وهو غير السرداب الذي دخله المهدي المنتظر بحسب السرديّة الشيعية الفصيحة، لكنّه استعار من الثاني سيمياء الدلالة على الاختفاء، والاختباء، والتخفّي، والابتعاد عن الشأن العام، بانتظار أن يأذن الظرف الموضوعي بالخروج والمكاشفة، وخلال مكوثه في سردابه ذاك أكثر من عام، عبرت اغتيالاتٌ كثيرةٌ الهواءَ فوق رأسه، ولأنّه تدثّر جيداً بالصمت، وجدَ من غير اللائق أن يساند لغوياً مأساة «محور المقاومة والممانعة» بفقدان قادتها من الصفوف الأولى، وكأنه تطلّقَ من التبعيّة لهذا المحور، وتزوّج الانكفاءَ إلى عتمة السرداب، وأنجب من زواجه الجديد نسلاً واضحَ التكوين من الانتهازية السياسية، والبراغماتيّة كثيفة الدلالة، فلم يشارك في تأبين الرئيس الإيراني السابق إبراهيم رئيسي إثر مصرعه بتحطّم مروحيّةٍ رئاسيةٍ كانت تقلّه مع آخرين في 19 مايو/ أيّار الماضي، واكتفى بإرسال برقيّة تعزية إلى أسرة الأمين العام السابق لحزب الله حسن نصر الله إثر اغتياله، الجمعة 27 من الشهر الماضي (سبتمبر/ أيلول)، بغارة إسرائيلية استهدفته في الضاحية الجنوبية لبيروت. وكلّما ارتفع منسوب الاغتيال، والتصفيّة الممنهجة لقيادات حزب الله، والحرس الثوري الإيراني، وحركة حماس، ازداد يقين الأسد بصوابية «سردابه» وآداب البقاء فيه، وهذا الذي جعله يحترسُ من تلاوة مزيدٍ من الكلام الذي يحفظه عن تحقير إسرائيل، أو عن هيامِه الشديد بالمدّ الشيعيّ «الثوريّ» المكتظّ بإيحاءات زوال دولة الكيان، وعودة «صاحب الزمان» من سردابه المُضْجِر، فيصير الأسد داخل سردابه المجازيّ، ومع مرور أوثانِ الوقت أمام عينيه أشدَّ طوعاً لإسرائيل، وأكثر مُداراةً لمزاجها التوسّعيّ المريض، علّهُ أيضاً، يلتقط طوقَ نجاةٍ يتيح له العومَ فوق دماء السوريين التي أشرف على سفكها، واكتشاف زمرتها، أو العومَ فوق خرائب مدنه المدمّرة، وجوع من بَقَيَ داخل مناطق سيطرته المنهكة بحكم العصابة وزعيمها أثناء إفلاسه السياسي، الذي على تلّ أبيب مداواته كلّما ضاقت السُبل به، أو مداواة أعراضه الجانبيّة الملتوية، كلّما شارف دوره الوظيفيّ على الانتهاء.

> تستثمر إسرائيل بطشها العسكري، لتجعله مقبولاً أكثر في الفضاء العام، فتغاضى كثيرون عن فكرة العدوان الإسرائيلي لصالح فكرة الخلاص

كما يأخذنا مجازُ السرداب وحِيَلِهِ، وهو يحيط بضمور ظهور رأس النظام السوري (إلّا في مواضعَ ومناسباتٍ محدودة جدّاً) إلى حُسنِ استثمار الأسد سردابَ غيبته الغامض، إذ يحاول أن يُوْدِعَ فيه كلّ ما تبقّى من رأس ماله السياسي (يمثّل بشّار الأسد حالةً سياسيةً متعدّدة الاستخدامات)، وقد يتيح هذا الإنفاقُ السخيّ للأسد شراء استنتاجات مضمونة قد تُفسّر له مصيره العالق داخل زحمة دلالاتِ إعادة كتابة المنطقة بلغةٍ وسردٍ جديدَين، خارج نصّ «سايكس بيكو» حين قسّم المنطقة عام 1916 وألحقها بالنفوذَين الفرنسيّ والبريطانيّ، وهذا نصٌّ راوغنا كثيراً حتّى وصلت خطوطه إلى ما وصلت إليه اليوم، مُنشئةً العراق وسورية ولبنان والأردن وفلسطين.

نشر، في فبراير/ شباط 1982 عوديد ينون، الذي عمل مستشاراً لآرييل شارون، ثمّ صار مسؤولاً بارزاً في وزارة الخارجية الإسرائيلية، خطّةً حملت عنوان «استراتيجيّة لإسرائيل في الثمانينيّات»، في مجلة كيفونيم العبريّة، وسرعان ما صارت تلك الدراسة تُعرف بـ«خطّة ينون»، قدّمت رؤيةً مبكّرة لشرق أوسطٍ جديد، بحدود سياسية جديدة أساسها الخصوصيّة الديموغرافيّة، وهناك من يعتقد أنّ تلك الخطة نجتْ من التجاهل والنسيان حين تبنّاها معهد الاستراتيجيات الصهيونيّة التابع للإدارة الأميركيّة. فيها تمثّلٌ واضح لشغف اليهود بالميثولوجيا التوراتيّة، التي تظنّ أنّ حدود إسرائيل النهائية تقع بين نهرَي الفرات والنيل، والواضح أنّ دولة الكيان ارتدت زيّها العسكري بما يليق باحتضان خطّة ينون منذ أن غزت غزّة قبل عام من الآن، في الوقت الذي يواصل فيه بشّار الأسد عناق سردابه، وامتحان الزمن من هناك، متناسياً شعارات المرحلة، مرحلةِ الصمود والتصدّي التي كان يطعمها لشعبه كلّ يوم، متسائلاً أيضاً، إلى متى سيبقيه عوديد ينون في السرداب؟!

(كاتب سوري)

مصر والحرب الإقليمية على حدودها

عمر سمير

يحاول بعضهم التعالي على حقيقة أننا نعيش داخل حرب إقليمية دائرة منذ قرابة العام، وتتعدد جبهاتها من فلسطين ولبنان واليمن إلى الأردن والعراق وسورية وإيران. تقف فيها إسرائيل والولايات المتحدة في خندق متماسك إلى حد كبير وبظهير تمويلي وتسليحي غربي قوي، بينما تحاول قوى المقاومة، وأغلبها فواعل من دون الدولة في المنطقة، لملمة شتاتها وفعل ما تستطيع للدفاع عن الأرض والعرض العربي بلا أي ظهير رسمي مع الأسف، وعلى أقصى تقدير هو ظهير كلامي في المحافل الدولية لذرّ الرماد عن الأنظمة الرسمية العربية مع هامش امتعاض شعبي وحراك طلابي مناوئ عربي وعالمي. أبدت مصر، في بداية الحرب، محاولة لمنع التصعيد ولعب دور الوسيط بالمفاوضات ويزاحمها فاعلون إقليميون كثر، وكانت تتخوّف من سيناريو التهجير من دون تقديم أي فعل أو رد فعل يمكن أن يساهم بمنع هذا التهجير، مثلها في ذلك مثل الأردن، فكلتاهما لم تكونا تتوقعان حربا ممتدّة عاماً أو صمودا للمقاومة بهذا الشكل، ثم لم تكونا تتوقعان توسع الحرب، بل لا تزالان تتحدّثان عن منع توسع الحرب وصداعاً مزمناً لبعض الأنظمة، ومعطّلا لمشروعاتهم الرامية إلى التطبيع الكامل والتسليم بالوضع الراهن والانسحاق التام أمام مقولات انهزامية.

مصر التي قامت الحرب في آخر الدنيا بين روسيا وأوكرانيا فتأثرت عملتها واقتصادها أكثر من اقتصاد وعملات البلدين المتحاربين ذاتهما، وتضخّمت أسعار السلع فيها أكثر من الطبيعي، وكيف لا وهي المستورد للغذاء والطاقة وغالبية السلع الوسيطة، والحال بائسٌ كذلك، تتحول البلاد مفعولا به وجزءاً من ملعب دولي وإقليمي، مصر هذه لا تستطيع أن تكون حتى لاعب احتياط في دول على حدودها وجوارها المباشر وعمقها الاستراتيجي الذي يؤثر بها ويتأثر وينتظر دورا أو فعلاً يقلب الطاولة، فلا يقابل إلا بالصمت المطبق، وكأننا في دولة متحللة من أدوارها في الداخل والخارج مع الأسف الشديد. يعلق بعض المواطنين المصريين والأردنيين بحرقة شديدة على الدور الإقليمي المفتقد بأن لمثل هذا الموقف الصامت، ولمثل تلك الأيام كانت اتفاقيتا كامب ديفيد ووادي عربة تحييداً كاملاً لدول الجوار الهامة التي تقول معادلات التاريخ والجغرافيا السياسية والسنن الكونية إنه لا تحرير بدونها، فلا تحرير لفلسطين من دون دولة قوية ونظام قوي بمصر والشام شام التاريخ الذي يشمل الأردن ولبنان وسورية. ومع الأسف، الوضع حالياً أن ثمّة أنظمة ضعيفة تجاه الخارج قوية تستأسد على شعوبها ومجتمعات فكّكتها الأنظمة وأهلكتها في استقطابات حادّة وتجتاحها قوى الطائفية فتقدم للعدو موقفاً مشتّتا على أطباق من ذهب، موقفا يشمت بعضه بموت حسن نصر الله، فيما يشمت آخرون بموت إسماعيل هنيّة، وتخوّن فيه المقاومة على صفحات صحف وقنوات لا يمكن أن نسميها إلا عبرية ناطقة بالعربية حتى لو تسمّت بالعربية.

> يستغرب بعضهم أن موقف دول في شمال أوروبا وأميركا اللاتينية وأفريقيا أكثر استقامة ودعماً للقضية الفلسطينية من مواقف مصر

وينتظر بعضهم هلاك كل خصومه متفرّجا ويعتبرها حربا على إيران وأذرعها، إن لم يكن مروّجا شائعات أنها حرب وهمية بالتوافق بين إيران وإسرائيل، بينما هي قطعاً ليست حربا على أذرع إيران في المنطقة، ولن يضرب الله الظالمين بالظالمين، ويخرجنا من بينهم سالمين، كما يحلو لبعض من العامة، ومن مشايخ التيار السلفي المدخلي ومتصوّفي الأنظمة العربية والدراويش أن يدعوا على المنابر منذ سنين. وليس هناك راكب مجاني رابح في هذه الحرب، وإذا كان هناك، فهو ليس بالتأكيد مصر ولا الأردن. هناك انتقال مطلوب من مساحة رد الفعل إلى الفعل الجماعي العربي أو توقفها، حتى بعد الاستهداف الإسرائيلي الواسع للبنان واليمن وطهران. تتحدّث إسرائيل وحلفاؤها عن إعادة رسم الشرق الأوسط بينما يبقى حلم النظامين في مصر والأردن وبعض العواصم العربية فقط الخلاص من صداع المقاومة وقياداتها الذين يمثل صمودهم وخطاباتهم حرجا مستمرّاً المؤثر الذي يستطيع فعلا إيقاف تلك الحرب الدائرة في سمائه وبحره وبرّه، وليس أقل من قطع النفط أو التهديد به، وهو أمر مفيد جدا من الناحية البراغماتية لكل الدول النفطية والدول المصدرة للعمالة إلى دول النفط المتلقّية للتحويلات وأكبرها مصر.

عام مر على الحرب الدائرة على حدود مصر الشرقية التي كانت ولا تزال مصدر التهديد الأكبر للأمن القومي المصري على مر التاريخ، ولا تزال مصر في دائرة التنديد والإدانة والمطالبات، كما لو أنها في منطقة أخرى من العالم، بل يستغرب بعضهم أن موقف دول عديدة في شمال أوروبا وأميركا اللاتينية وأفريقيا أكثر استقامة ودعما للقضية الفلسطينية من مواقفها تلك، التي لا تخدم أمن مصر القومي أو دورها الإقليمي المفترض أو حتى تساهم جدّيا في وقف التصعيد، ولا تستطيع قيادة إجماع عربي وإسلامي وأممي من أجل وقف تلك الحرب أو حتى إدخال المساعدات الغذائية والصحية والإنسانية إلى قطاع غزّة الذي يشهد حرب إبادة جماعية لن يستطيع أحد أن يتحمّل عواقبها أو يمحو ذلك الموقف المخزي منها من سجل سياسة مصر الخارجية وأرشيفها.

(كاتب مصري)

العربي الجديد
www.alaraby.co.uk
تصدر عن شركة فضاءات ميديا ليميتد (Fadaat Media Ltd)

رئيس التحرير معن البياري ■ مدير التحرير ارنست خوري ■ المدير الفني إميل منعم ■ السياسة جمانة فرحات ■ الاقتصاد مصطفى عبد السلام ■ الثقافة نجوان درويش ■ منوعات ليال حداد ■ المجتمع يوسف حاج علي ■ الرياضة نبيل التليلي ■ تحقيقات محمد عزام ■ مراسلون نزار قنديل

المكاتب
■ المكتب الرئيسي، لندن
Ealing Cross, Second floor, 85 Uxbridge Road, London, W5 5TH
Tel: 00442045801000
■ مكتب الدوحة
الدوحة ـ برج الفردان ـ لوسيل ـ الطابق الـ 20 ـ
هاتف: 0097440190600
■ مكتب بيروت
بيروت ـ الجميزة ـ شارع باستور ـ بناية west end 33
هاتف: 009611567794 - 009611442047
■ البريد الإلكتروني: Email: info@alaraby.co.uk
■ للاشتراكات: alaraby.co.uk/subscriptions
هاتف: 97440190635+ جوال: 97450059977+
■ للإعلانات: alaraby.co.uk/ads